الباب الثاني
مصادر مكسيم رودينسون

إذا أردنا أن نجمل المصادر العامة للفكر الغربي المعادي للإسلام عمومًا وجدنا أنها ترجع جميعًا إلى المنابع التالية :

١- إلى الكُتّابِ النصارى واليهود العرب الذين عاشوا مع المسلمين في وطن واحد، واختلطوا بهم وعرفوا دينهم ، عن كثب .

٢- إلى النصارى واليهود الأسبان الذين تعايشوا مع المسلمين في الأندلس وتعلموا لغتهم وتحدثوا بها ومهروا فيها ، وتزيوا بزى المسلمين ، وتقلدوا آدابهم كما تعلموا علومهم. وكانوا يدخلون مع المسلمين في حوار هادئ أحيانًا ، أو في جدل حاد ، يصل إلى حد الطعن في القرآن والنبي عليه السلام أحيانًا أخرى . كما يتضح من خلال كتابي ابن حزم ، «الرد على ابن النغريلة اليهودي» ، وكتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ، وكتاب «مقامع هامات الصلبان للقرطبي»، على سبيل المثال .

٣- الرهبان اللاتين الذين تعلموا اللغة العربية وتعرفوا على بعض التعاليم والعقائد الإسلامية ، إما عن طريق الترجمة كما في حالة رهبان دير كلوني في فرنسا الذي كان يضم مجموعة من المترجمين الغربيين لدراسة وترجمة بعض الكتب العربية للتعرف على الإسلام ، وبالذات تلك الكتب التي ألفها يهود متنصرون ، أو نصارى مستعربون ، والتي كانت تتميز بالميل الشديد إلى الخرافة والإثارة ضد الإسلام والمسلمين ؛ ومن الجدير بالذكر أن دير كلوني قد تأسس عام ٩١٠م ميلادية في مقاطعة بورجاندي ، واستمر عمله حتى عام ١٧٩١م تقريبًا ، وكان مؤسسه هو بطرس المحترم (١٠٩٤م- ١١٥٦م) . عني هذا الدير أكثر من غيره بترجمة القرآن الكريم ترجمات مغرضة ومشوشة ، كما قام بترجمة بعض الكتب العربية في الموضوعات العلمية المختلفة ، وقد كان لهذه الترجمات بلا شك أثرها السيئ في تشكيل العقلية الغربية والموقف الغربي تجاه الإسلام والمسلمين ، واستمر تأثيرها كذلك حتى الوقت الحاضر كما سنبينه بالتفصيل.

٤- هناك مصدر آخر مهم من هذه المصادر لا ينبغي إغفاله وهو يتحلى في تلك الكتابات التي أنتجتها الحروب الصليبية والتي أفادت أيضًا من كتابات النصارى

واليهود العرب في المنطقة ، ككتابات يوحنا الدمشقي (ت حوالي ٧٤٩م) ، الذي عاش في ظل الدولة الأموية ، وخليفته ثيودور أبو قره ،حيث كتب الأول مناظرة متخيلة بين نصراني ومسلم ، انتصر فيها للنصرانية في كل شيء ، وإن كنا نشك في نسبة هذا الكتاب إلى يوحنا الدمشقي ونرى أنه وضع بعد قرابة القرن من وفاته ، وفي هذه القرينة نذكر أن يوحنا ألف كتاب ينبوع المعرفة Fount of knowledge الذي يدور الجزء الثالث منه حول العقيدة الأرثوذكسية كما شرحها الآباء الإغريق ، والذي كان له تأثير كبير على نصارى الغرب[1] .

ومما يلفت النظر في هذه القضية هو أن الطعون التي كتبها أصحابها ضد الإسلام ترجع إلى الكُتّاب النصارى واليهود ، ولا غرابة في هذا ، إذ أن المعركة الجدلية بين المسلمين وغير المسلمين كان يتزعمها رجال الدين المسيحي أو اليهودي ، بل إن الغرابة كل الغرابة في أن يتصدى العلمانيون للإسلام وأن يتجه الغرب في عصر سيادة الروح العلمانية إلى الحط من شأن الإسلام والمسلمين وتصعيد المواقف السياسية والدينية ، وإثارة الرأي العام الغربي ضدهم بهذا الشكل . وسوف نتناول هنا بعض المصادر التي تكمن وراء كتاب محمد صلى الله عليه وسلم لمؤلفه مكسيم رودينسون ، ووراء الكتابات المماثلة التي تظهر في الغرب بين الفينة والفينة بحيث شكلت تيارًا مستمرًا من العصبية والحساسية ضد المسلمين .ولأن الكاتب الذي نناقش كتابه هنا فرنسي الثقافة فإننا سوف نركز كلامنا على الفكر الفرنسي بوجه عام ، وعلى الجانب المعني منه بدراسة وعرض الإسلام بوجه خاص .

الإسلام في الفكر الفرنسي :

ترجع الحركة الفكرية الفرنسية التي كان لها تأثير كبير على مسرح الأحداث الثقافية في أوروبا إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، لقد برهن المثقف الفرنسي في هذه الحقبة من التاريخ على أنه صار كاتبًا ، مجرد كاتب ، لا باحث أو عالم مدقق كما ينبغي . صحيح أنه استطاع أن يبرهن على حريته الفكرية وعلى عدم خضوعه لسلطة الدولة ، وعلى قدرته على إبداع النقد الاجتماعي الحر الذي أثبت من خلاله أنه حد مدرك لمسئوليته الفكرية . وبالإضافة إلى ذلك ، وكما يقول برنانوس Bern-

(1) Donald Attwater - A Dictionary of Saints - (Great Britain-Penguin Books-1965) P.194.

anos فإنه قد اصطبغ عقله بالاعتقاد بتفوقه العقلي والروحي على غيره ، ولكنه في الوقت نفسه كانت تعوزه وسائل التعمق الفكري الذي تميزت به العقلية الألمانية على سبيل المثال . إلا أنه مما ينبغي ملاحظته أن المثقف الفرنسي كان يمتلك قدرات خاصة في فن الاتصال بداية من فولتير وحتى سارتر الفيلسوف الوجودي . لقد تميز المفكر الفرنسي بروح المحارب العنيف على طول الخط . وإذا ما نظرنا مع الكاتب الفرنسي هيتشم دجيت Djait Hichem إلى عصر التنوير فإننا نجد على الجانب الفلسفي أن فولتير Voltaire وفولني Volney من بين الفلاسفة الفرنسيين ، قد اهتما بشكل عام بالإسلام فاطلعا عليه عن قرب إلى حد ما ، وبخاصة على الجوانب العقائدية منه ، ومن دراستنا نلاحظ أن كل ما كان يفهمه فولتير للأسف عن الإسلام واتخذه من ثم أساسًا في الحكم عليه ، هو أنه ربط خطأ بين العنف وبين الإسلام بل إنه أرجع تاريخ العنف في الإسلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، فمحمد كان في نظر فولتير إرهابيًا بالمصطلح الحديث. ونشير هنا إلى مسرحية فولتير التي كتبها ضد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتي هي بعنوان التعصب أو محمد النبي، والتي عرضت لأول مرة في مدينة ليل بفرنسا عام ١٧٤١م ، وهذه المسرحية قد اشتملت على كل ألوان الطعن والتجريح في شخص النبي صلى الله عليه وسلم والدين الذي جاء به .

لقد توجه فولتير أول ما توجه بالطعن إلى الجوانب الدينية في الإسلام ، كما فعل ذلك مع المسيحية كديانة رسمية للدولة ؛ وهنا لا بد أن نلفت النظر إلى أن فولتير قد راق له أن يتهم الإسلام بالتعصب وأن يحصره في إطار هذه التهمة الباطلة . إنه جعل الإسلام رمزًا للتعصب والكراهية للإنسانية وعلامة على مدى التعطش للوصول إلى القوة a symbol of fanaticism and anti humanism .

والعجيب أن فولتير وهو يمثل عصرًا كاملاً للحركة الفكرية في فرنسا يزعم بالإضافة إلى ما سبق أن الإسلام كان قد انتشر بسبب الإباحية الجنسية التي اتسم بها نظامه. ومع هذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظل بالنسبة لفولتير رجلاً انتهازيًا توقف نجاحه على استغلال سذاجة أتباعه وفرض دعوته على الناس بالقوة الغاشمة ، وأنه كان كذابًا وذا نزعة عدوانية وشريرة ، وقد عقد فولتير مقارنة ظالمة بين النبي محمد وبين نبي الله عيسى عليهما السلام ، الغرض منها التقليل من شأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وقبل أن نرد على مزاعم فولتير وعلى الاتجاه الذي كان يمثله هذا الفيلسوف ينبغي أن يكون واضحًا لدينا أن الأدب الفرنسي قد اتسم في هذه

الفترة بالكراهية الشديدة للإسلام والمسلمين ، وبالطعن الحاد في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أصاب نابليون حقًا عندما قال«لقد أساء فولتير إلى التاريخ وإلى القلب الإنساني «Here Voltaire had done disservice to history and to the human heart[1] وذلك لشدة هجومه على الدين. لقد خلط الفيلسوف الفرنسي بين الإسلام كقوة سياسية مسيطرة، وبين الإسلام كدين ، والذي كان فولتير يحط من شأنه ويحقره disparaging it بشكل يصل إلى حد العداء السافر والتحرد من الروح العلمية . وإن كان قد لوحظ أن الحدّة في النقد عند فولتير ضد القرآن وضد الرسول صلى الله عليه وسلم قد قلت بدرجة ما فيما بعد «the tone became more restrained and nuanced» إلا أن أحكامه على الإسلام ظلت قاسية ومجحفة لوقت طويل ، وبالرغم من ظهور بعض الكتابات الأخرى في فرنسا ، والتي ألقت بعض الضوء على الإسلام ، وصححت بعض المفاهيم الخاطئة للغربيين عنه واطلع عليها بلا شك فولتير فإن حكمه على الإسلام ظل جافيًا بشكل عام ، إلا أنه تراجع عن موقفه المتشدد من الرسول صلى الله عليه وسلم بحيث عاد فوصفه بأجمل الأوصاف وأبدى إعجابه الشديد به ؛ مما جعل نقده السابق ينحسر إلى حد كبير . لقد استطاع فولتير بعد هذه العداوة الشديدة أن يرى في الإسلام الوضوح وعدم الغموض والتعقيد ، وأنه هو الدين القادر على الوفاء بحاجات البشرية، ورأى كذلك في رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً عظيمًا أدخل الناس في دين الله دون إكراه. وأنه هوالذي وضع خطة العمل التي تحددت على أساسها معالم الشخصية الإسلامية.

ويعتبر نورمان دانيال ظهور هذا الأدب الفرنسي المعادي للإسلام هو بداية ظهور روح التحيز والعنصرية ضد المسلمين ، تلك الروح التي اتسمت بها العصور الوسطى بشكل عام . ولكن هيتشم دجيت ، يرى بخلاف دانيال أن هذه الظاهرة إنما كانت تقويمًا جديدًا للإسلام كقوة دينية أو كرؤيا بعيدة المدى والتأثير تميز بها هذا الدين واستلهم منها مبادئه وتعاليمه. ولكنني أرى أن كلا الرأيين لا تعارض بينهما ، إذ قد استمر الموقف الغربي العدائي ضد الإسلام حتى اليوم ، ولم يتغير إلا قليلاً مما يؤكد صحة رأي دانيال، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن سبل الاتصالات والمعلومات قد زادت بين الوطن الإسلامي والبلدان الغربية في العصر الحديث مما أفسح المجال أمام

(1) See Norman Daniel, Islam, Europe and Empire, Edinburgh, 1966, P.29 & Hichem Djait, Europe and Islam, University of California Press, 1985, P.176.

كثير من الأوربيين نحو فهم أفضل للإسلام ، مهما تكن درجة هذا الفهم. وهذا على أية حال يدعم من جهة أخرى وجهة نظر هيتشم في أن المطاعن التي وجهها فولتير في البداية ضد الإسلام قد فتحت الطريق أمام الغربيين لكي يتعرفوا أكثر على هذا الدين، وأن يكونوا أكثر عقلانية في تناولهم له ، بعبارة أوضح فإن ما فعله فولتير ومن نهج نهجه في الهجوم على الإسلام ، قد أضر من وجه بالعلاقة الغربية الإسلامية، ولكنه قد أفاد من وجه آخر في تقديم الإسلام للغربيين على نطاق أوسع.

وهنا لابد أن نشير إلى كتابات بولينفيللرز Boulainvilliers وعنوانها The Essai Sur les moeurs والتي حاول من خلالها أن يحلل السمات الرئيسة للإسلام ، وذلك في إطار دراسته لتاريخ الأديان ، وقد ساعدت كتابات بولينفيللرز، فولتير على أن يميز عند حكمه على الإسلام بين القرآن وما عمله الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين ما وصل إليه المسلمون فيما بعد وعبر القرون من علوم أو آراء بفعل الاجتهاد والتطور.

For Voltaire, Muhammad remains a man who played upon the credulity of his fellows and imposed his message by brute force.(١)

إنه باستعراض ما كتب عن الإسلام في المصادر الفرنسية فيما بعد نلاحظ أن نزعة العداء والحكم الجائر على الإسلام بدأت تتغير بدرجة طفيفة ، فقد لوحظ أن بعض الكتاب الفرنسيين كان يرى في الإسلام درجة من التسامح والعقلانية ، هذا في الوقت الذي كان فيه الغربيون لا يزالون منغلقين ومتعصبين .

وهكذا فإننا نلاحظ ظهور بعض النزعات الإيجابية في الكتابات الفرنسية حول الإسلام ، إلا أن السلبيات الكثيرة في هذا المجال تكاد تغطي عليها ، مما جعل صورة الإسلام في الغرب لا تزال معتمة ومشوهة فقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مثل الإنسانية الأعلى في الطهر والعفاف يقدم إلى القارئ الفرنسي على أنه مؤسس الديانة الإسلامية ، وأنه - معاذ الله - كان كذابًا ودعيًّا غويًّا، وأن المسلمين مسلمون بالاسم فقط وأما جوهرهم ففارغ من كل حقيقة .

وكتعليق على كلام فولتير السابق ينبغي أن ننبه على أن الإسلام لا يقر الإباحية الجنسية مطلقًا ، بل إنه على العكس من ذلك قد جعل الزنا جريمة يعاقب عليها بالرجم في حالة الإحصان ، وبالجلد والتغريب في حالة الزاني غير المحصن . يقول تعالى على سبيل المثال : ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء ٣٢) .

(1) Ibid, P. 22.

والمراجع للآية السابقة والآية اللاحقة لهذه الآية يتبين له أن الله قد أورد النهي عن الزنى بين نهيين عن جرمين عظيمين، النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر (آية رقم٣١) وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا لسبب شرعي ردعي لوقاية المجتمع وحماية حياة الأفراد (آية رقم٣٣) . وفي سورة الفرقان (آية ٦٨) ذكر الله أن من صفات عباد الرحمن أنهم ﴿....لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبايع النساء المؤمنات .... (الممتحنة ١٢) ﴿... عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ...﴾كما حرم الإسلام اللواط وعاقب عليه بقتل الفاعل والمفعول به ، بل وعاقب عليه أمة كاملة . يقول تعالى في القرآن على لسان النبي لوط : ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء ١٦٥- ١٧٤) وقد أرجع القرآن هذه الفاحشة إلى مجرمي قوم لوط ، يقول تعالى : ﴿... لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ (الأعراف ٨٠- ٨١) وحرم الإسلام كذلك السحاق ، وهو استمتاع المرأة بامرأة مثلها على أي نحو كان ، وأمر بالتفريق بين الأولاد في المضاجع ، كما نهى عن كل ما يخل بالعرض أو ينال من الشرف أو يساعد على اختلاط الأنساب وإشاعة الفاحشة والفساد في المجتمع، وجعل الإسلام الزنا خروجًا على الفطرة ، وعلى قوانين الصحة البدنية والنفسية والعقلية والاجتماعية ، ولتحصين المجتمع ضد هذه الموبقات المهلكات أمر الله تعالى بغض البصر ، والتحفظ في إبداء الزينة ، وحرم في هذا الاتجاه كل ما يؤدي إلى ارتكاب الفاحشة أو يعين عليها أو يرغب فيها ويزينها للنفس كالنظر الممعن ، أو الخلوة بالمرأة الأجنبية . وفي سبيل تحقيق هذه المُثل الطيبة أمر الإسلام بالزواج وحض على التيسير في المهور وتوطئة الطريق للراغبين فيه كما أباح الزواج بأكثر من امرأة ،

إذا كان الاقتصار على واحدة يخشى معه الوقوع في المحرمات ، والاستمتاع خارج الإطار الشرعي . وبالرغم من أن تعدد الزوجات كان شائعًا في كل المجتمعات القديمة و لم يبتدعه الإسلام ، فإنه قد وضع له حدودًا وقيودًا وصانه بضوابط وشروط لا بد من توفرها أولاً ، على أن تعدد الزوجات قد يكون ضرورة تمليها ظروف مجتمع ما وتحتمها بعض الحالات الطارئة ، كحالات الحروب التي تزيد فيها عدد الفتيات في المجتمع على عدد الرجال ، فالحلول الإسلامية للعلاقة بين الرجل والمرأة ليس فيها تسيب وإباحية أو مراعاة لإشباع الغرائز قط وإنما فيها وقاية وراحة ، للفرد والمجتمع .

وأما زعم فولتير بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استغل سذاجة أتباعه ففرض عليهم دعوته بالقوة فهذا تشويه للتاريخ نفسه ، فلم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم قط بالمستغل أو المكره للغير على اعتناق دين الله ، و لم يكن أصحابه كذلك بالسذج ، وإنما كانوا عقلاء علماء ، وكانوا نوابغ في كل علم ، كما كان منهم القادة العظام والذين تعلموا من رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم الحقيقي ، وتعلموا منه احترام العقل ، وتعلموا من كتاب الله تعالى ضرورة البحث والنظر والحفاظ على حرمة التكاليف الشرعية والعقلية ، وعلموا كذلك غيرهم من الأجيال المتعاقبة حتى أفادت منهم الإنسانية كلها على مدار التاريخ .

أما زعمه بأنه صلى الله عليه وسلم كان يكره الناس على اعتناق دين الله فرأي خاطئ وحكم بالهوى في مسألة حكم الله تعالى والرسول صلى الله عليه وسلم فيها، وسجل التاريخ أنه على العكس من زعم فولتير كان الكفار هم الذين يكرهون الناس على الكفر ، ويمنعونهم من الدخول في الإسلام ، أو يجبرونهم على الخروج منه إذا دخلوا فيه ، لكنهم لم يفلحوا أن يزحزحوا مسلمًا عن دينه ، حتى هؤلاء الضعاف الذين لم تكن لهم قوة تحميهم ، أو درع بشري يقيهم ، اعتصموا بالله واستمسكوا بحبل الله المتين ، وبقوا مسلمين برغم العنت والاضطهاد والتعذيب الواقع بهم ، وقد فر بعضهم بدينه إلى الحبشة ثم هاجروا إلى المدينة ليبنوا أمتهم وحياتهم على الإسلام .

وفي هذه القرينة نشير إلى المؤرخ إدوارد جيبون صاحب كتاب انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، « Decline and fall of the Roman Empire » فقد مزج هذا المؤرخ في كتابته عن محمد صلى الله عليه وسلم بين الحقيقة والافتراء ، إذ زعم مثل سلفه من الكتاب بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان كذابًا ولكنه كان في نفس الوقت متحمسًا لدعوته ، ولذلك لم يستطع جيبون أن يصل إلى نتيجة

حاسمة، أو رأي قاطع بالنسبة للإسلام ، إذ جاءت معلوماته وآراؤه عنه غير دقيقة ، إلا أن الشيء الذي يبرز ظاهرًا للعيان في هذا الكتاب هو وصفه للإسلام على أنه دين العنف والإكراه . يتجلى هذا واضحًا من خلال تصويره للمسلم بصورة بدوي يركب حصانًا وهو يحمل في إحدى يديه سيفًا وفي الأخرى كتابًا هو القرآن مخيرًا ضحاياه بين الإثنين[1] يعني الإسلام أو القتل بحد السيف. وهذا شيء يستحيل وقوعه عقلاً وهو مصادم للواقع ، إذ كيف يمكن أن يخرج بدوي من الصحراء ويجبر هذا الخلق العظيم على اعتناق الإسلام وقبول القرآن الكريم ، ومن بين هذا الخلق أهل السابقة في الحضارة والعلوم ، كالفرس والروم وغيرهم ؛ وكيف إذا حدث هذا الإكراه مرة أن يتكرر مرات ومرات وأن يظل الناس هكذا راضخين للقوة راضين بالقهر والإذلال . بل كيف يفسر هذا المؤرخ دخول الإسلام وغلبته في مناطق لم تصل إليها أية جيوش إسلامية . كما أوضحه سير أرنولد في كتابه الدعوة الإسلامية The preaching of Islam" . بل وكما لاحظه هذا المؤرخ المنصف فإن الإسلام قد انتشر بقوته الذاتية وليس بهيئة منظمة كالكنيسة ، ولا عنّ طريق العملاء المأجورين والمؤسسات والجمعيات الكثيرة التي تنظمها وتنفق عليها ببزخ الكنائس الغربية ، وبخاصة في العصر الحديث[2].

يتفق مونتسيكيو وفولتير وفولني في دعوى أن تأخر المسلمين كان سببه إخفاق حكوماتهم سياسيًا وعجز الإسلام كذلك عن الوفاء بمتطلبات الحياة[3].

هذه الأفكار غير الصحيحة صارت كالأعشاب الشائكة التي تمنع ضوء الشمس والهواء أن يصلا إلى التربة فينقيها ويقويها وإلى العقول فيصححها وينقحها . وكتعليق على وجهة النظر هذه نقول إن سقوط الدول ، وإخفاق الحكومات قد لا يكون سببه تهافت الدستور أو ضعف العقيدة أو عجز الشريعة عن الوفاء بمتطلبات البقاء وعن الإمداد بأسباب المنعة والعزة ، وبخاصة إذا كانت هذه الشريعة وافية وكافية بذاتها وسبق أن طبقت بنجاح في أماكن مختلفة وفي أزمنة مختلفة ، فالدواء وبخاصة الذي ثبتت يقينًا صلاحيته لا يمكن أن يكون سببًا لموت المريض إذا مات ، أو لزيادة مرضه

(1) Edward Gibbon { Decline and Fall of the Roman Empire ed. by J.B. Bury (London, 1909-1914) vol. 5 P. 332}.

(2) T.W, Arnold, The preaching of Islam, (Pakistan, 1976) pp413ff.

(3) Rw. Southern, Western Views of Islam in the middle ages (Cambridge, Missl Harvard University press 1962 P19).

إذا ما اشتدت علته إذ قد تكون هذه العوارض قد حدثت لأسباب أخرى ، قد تكون في عين الخروج عن المنهج . والإسلام دين صحيح، شامل وكامل وصالح لإقامة دولة وإحاطتها ، وبناء حضارة ورعايتها . أما ما حدث من سقوط وانهيار للمسلمين فيما بعد فإنما كان سببه الخروج عن التعاليم الإلهية والاكتفاء بإدارة شئونهم ظاهرًا بالإسلام، وباطنًا بالهوى والعسف والهوان. فلقد ساس الحكام العثمانيون مثلاً الشعوب الإسلامية بنظام الحكم المطلق ، وأهملوا ركنًا رئيسًا في السياسة الشرعية وهو مبدأ الشورى ، هذا بالإضافة إلى الفساد السياسي والاجتماعي الذي كان سائدًا في المجتمعات التي يفترض فيها أنها إسلامية ، أضف إلى ذلك ما حدث بسبب استعمار العالم الإسلامي وتمزيق أرضه وتفريق أهله . ومن الجدير بالذكر أيضًا أن نشير إلى أن فولتير لم يستبعد حدوث صحوة بين المسلمين المقهورين ، إلا أنه لم يرد هذه الصحوة إلى أسباب أو مقاصد دينية وإنما إلى أسباب مادية واقعية تتصل بالإنسان نفسه وذلك كدافع النداء الفطري العميق ، والكامن في وعي كل إنسان ، والذي يحثه على الوصول إلى وضع أفضل ، ومستوى أحسن في الحياة ، والوصول به إلى درجة أعلى في العلم والثقافة ، هذا إذا حاولت الشعوب أن تنصب حكومات أفضل تسوس أمورها ، وتضع لنفسها القوانين العادلة والأكثر عقلانية [1]. وهذا التفسير بالطبع يتسق تمامًا مع الاتجاه العام للنزعة العلمانية التي اتسمت بها حركة التنوير في أوروبا ، والتي كان من مبادئها الثورة على الدين ، وعلى القيم الراسخة ، والدعوة إلى الاعتماد الكلي على العقل وتحكيمه في كل شيء وعدم الاعتراف بأي شيء يحد من نشاطه أو سلطته.

من المصادر التي رجع إليها مكسيم رودينسون كتابات فولني Volney (١٧٥٧ - ١٨٢٠) الذي قام برحلة إلى الشرق عشية قيام الثورة الفرنسية وكنتيجة لهذه الزيارة كتب كتابه المهم «وصف مصر وسوريا» description of Egypt and Syria وقد ساعدته خبرته في الشرق أن يؤلف كتابه الثاني les ruins في هذا الكتاب الأخير قدم فولني بعض التقويمات الشاملة للإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم .

ومن أهم ما قرره هذا الكاتب الفرنسي بالنسبة لنبي الإسلام زعمه هو الآخر أن محمدًا قد نجح في تشييد إمبراطورية سياسية ودينية على حساب كهان أو ممثلي موسى وعيسى(عليهما السلام)[2] .

(1) Hichem, p.23f.

(2) Ibid.

وهو يسمي القرآن «قانون محمد» the law of Muhammad ، ومن مفتريات فولني أيضًا أن الله نصب محمدًا نائبًا عنه، أو راعيًا باسمه على الأرض ، وألقى بين يديه بمطلق السلطان على العالم، وأحاز له أن يخضع كل من يرفض دعوته بحد السيف .

ويقول فولني أنه يرفض «نبي الله الرحيم» الذي لم ينشر في العالم سوى عمليات القتل والاغتيال والتعصب والعنصرية والتي هي مصادمة لكل معاني العدل .

ولقد صور علماء اللاهوت المسيحي رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه كان رجلاً متطلعًا وأنه لكي يحقق آماله وأهدافه الدنيوية قد سخر كل شيء في سبيل الوصول إليها ، وأهمها الوصول إلى السلطة[1] .

إن فولني يتحدث عن شخصية غريبة لا تنطبق صفاتها على شخصية النبي صلى الله عليه وسلم فإنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم قد جاء إلى العالم رحمة وسلامًا وأمنًا وعدلاً ، ولذلك فقد حقق ما عجز عنه القياصرة والأباطرة وأهل السطوة والاقتدار من الحكام ، إن هذه الأوصاف التي أطلقها فولني تنطبق على الغرب والغربيين ، سواء قبل عصر التنوير أو بعده ، أكثر ما تنطبق على الإسلام والمسلمين . وبغض النظر عن الأسباب والمقدمات التي ساعدت على ظهور وغلبة العنف والاضطهاد في العالم فإن من قتلوا في عصر النبوة لا يعدون إلا بالعشرات ، وأنه لا يمكن بحال أن يقارنوا مثلاً بمن قتلوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية بالأسلحة الحديثة والذين يربو عددهم على المائة والسبعين مليونًا أي ما يعادل سكان إيطاليا وانجلترا وفرنسا ، أو ثلثا سكان أمريكا[2] .

والقرآن عند فولني عبارة عن «نسيج غامض» و«خطب متناقضة» و«مفاهيم مضحكة وخطيرة» . لقد هاجم فولني على سبيل المقارنة ، الديانة المسيحية كذلك لعدم عقلانية عقائدها ، ولكنه من ناحية أخرى يجد الجوانب الخلقية فيها واعتبرها ديانة الرحمة والعواطف الإنسانية الراقية والأعمال الروحية الجميلة . أما الإسلام فإنه من العجيب أن يصفه بأنه ديانة تحتقر العلم ، وتحط من قدره ، ولا تقيم للأخلاق والقيم أي وزن . إن الإسلام من وجهة نظره يجر إلى المطامع ويشجع على ارتكاب الرذائل الخسيسة واتباع الغرائز الدنيا فإنه ، أي الإسلام من أجل هذا يمني الشجعان

---

(١) أنظر بحثنا – مشكلة الجمود وقضية الاجتهاد – ندوة رابطة الجامعات الإسلامية ، ١٩٩٩م .

(2) Ibid.

بجنة الخلد ويتهدد الجبناء بالنار الأبدية .

يقول نفس الكاتب : «والإسلام في كلمة هو ديانة بربرية تقوم على الأخلاق المنحطة والقيم الرخيصة»[1]. ينبغي هنا أن ننبه على أن فولني لم يكن كاثوليكيًا صادقًا بل كان ناقدًا عنيفًا للكاثوليكية ، ولكنه على الأقل مع شدة نقده للعقائد النصرانية فإنه قد اعترف بسمو الأخلاق النصرانية . وهذا ما لم يفعله بالنسبة للإسلام فإنه للأسف لم ير نقطة نور في هذه الديانة بالرغم من صحة بصره وثقابة ذهنه.

إنه من الواضح أن فولني قد أعوزه السند التاريخي الأصيل والمصدر العلمي الصحيح لمعلوماته عن الإسلام ، وهو في هذا الأمر يتفق مع مكسيم رودينسون .

ويطلعنا هيتشم على نص ورد في كتاب الرحلة إلى مصر وسوريا لفولني ، وبينما هو يعبر عن انطباعاته عن الوضع السياسي في كلا البلدين ، قال فيه عن الإسلام أنه هو المسئول عن تأخر الشعبين السوري والمصري، والشعوب الإسلامية بوجه عام . وهو يزعم أن من يقرأ القرآن سوف يلاحظ خلوه من إقرار أي واجبات على الإنسان يكون مطالبًا بأدائها أو وجود أي مبدأ لنظام سياسي محدد ، أو أي فن في إدارة شئون الحكم ، إنه لم يقدم شيئًا يذكر حول الدستور أو القوانين المنظمة لحياة الناس ، وكل ما جاء في القرآن يمكن أن يلخص في أربعة أو خمسة قوانين ، هي من وجهة نظر هذا الكاتب تعدد الزوجات ، الطلاق ، الرق ، وحق الإرث لقرابات المتوفى .

ويمضي فولني في طعنه في القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم حتى يقول «إن القرآن كتاب ليس فيه جمال ولا نظام ، وإن محمدًا قد استعمل فيه أسلوبًا عنيفًا عنف الداء العضال ، وملأه بعبارات التعصب المتقد». وعن محمد صلى الله عليه وسلم يقول فولني أيضا :«إن محمدًا لم يهدف إلى تنوير أحد بل إلى استعباد الآخرين، إنه لم يسع إلى تكوين أصحاب ، بل رعايا يسخرهم لتحقيق أهدافه ومآربه وهكذا... وهذا هو نص كلام فولني[2].

Upon reflection it seems that the nature of the land has a real influence on behavior. It appears that in society, as in the wild, a country where the means of subsistence are somewhat hard to come by will have more active and industrious inhabitants than a country where nature is lavish with her gifts-there the people will be inactive and sluggish..... This would suggest the principle that people have a tendency to indolence not insofar as they live in warm countries

(1) Hichem, p.24.

(2) Ibid, p27.

but we must acknowledge that there are more inclusive and significant factors here than the nature of the land, namely those social institutions called government and religion. These are what actually determine the activity or inertia of individuals and nations; and, depending upon whether they broaden or narrow the range of human needs (whether natural or redundant), extend or contract the scope of man's activities.

لقد نقد نفس الكاتب القرآن والإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والمسلمين بشكل عام ، وتناول الشخصية الإسلامية بالتحقير والحط والازدراء ، إذ وصف المسلمين بالتحرد من مشاعر الحب تجاه المرأة ، وبالاستغراق في المتعة الحسية ، وهو نفس الكلام الذي ردده مكسيم رودينسون كما سنراه في موضعه من هذا الكتاب .

وفي موضع آخر يذكر فولني أن الأرض لها تأثير شديد على سلوك الإنسان ، وهي ضمن عوامل أخرى تشكل شخصيته ومواقفه في الحياة ، وبهذا يضيف فولني عنصرًا آخر لتأخر المسلمين في منظومته النقدية العنصرية ، وهو طبيعة الأرض (القاسية) والحكومة (الظالمة) والقرآن الذي يعتبره كتابًا خطابيًّا متناقضًا[1] . مثل هذا الكلام إنما يصلح في تشخيص المرض النفسي الذي كان يعاني منه فولني نفسه، وليس في رسم معالم شخصية النبي صلى الله عليه وسلم التي تفوق في عظمتها كل حدود العظمة الإنسانية .

ولكننا لسنا هنا بصدد دراسة علاقة هذا الكلام بعلم النفس الاجتماعي ، أو العلوم السياسية ، ولكن الذي يهمنا إبرازه في هذا السياق هو أن فولني يوظف كل شيء تقع عليه عينه أو يتصوره في ذهنه أو يتخيله في وهمه للحط من شأن الإسلام ونبيه (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين ، والذي يدعو للعجب أنه صور الإسلام وكأنه عدو لدود للعلم كما سبقت الإشارة إليه ، مع أنه من الحقائق المقررة والمشتهرة أن الإسلام هو أول دين يشجع على العلم ، العلم الذي يوصل إلى معرفة الله ، وإلى معرفة أسرار الكون الذي خلقه الله وسخره للإنسان، وإلى معرفة أسرار النفس البشرية .

إن القرآن نفسه هو كتاب علم ، ومعجزة الإسلام الأولى هي العلم ، والعلم في الإسلام لا حدود له ولا حجر عليه ، وإن آيات تكريم العقل والعلم والعلماء كثيرة ومتنوعة في القرآن الكريم ، ولقد كان الإسلام سَبّاقًا في الدعوة إلى البحث والنظر والحض على تحليل الظواهر الكونية ،ومعرفة القواعد الثابتة والمضطردة التي تحكم النظام

(١) Ibid, p27.

الكوني ، وإلى التعرف على آثار رحمة الله في الأرض وفي الخلق ، للتوصل إلى الذخائر والأسرار التي أودعها الله سبحانه وتعالى في باطن الأرض وفي الأنفس والآفاق . والعلم في الإسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ووقت طلب العلم في الإسلام يقدر بعمر الإنسان كله، يقول صلى الله عليه وسلم «العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

ويقول صلى الله عليه وسلم «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» ويقول: «اطلبوا العلم ولو بالصين»[1] ، وأورده ابن عبد البر القرطبي (٤٦٣ هجرية) بهذه الزيادة «اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم» ، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : «يوزن مداد العلماء بدم الشهداء يوم القيامة»[2] ، وعن الحسن بزيادة «فيرجح مداد العلماء» .

وعن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بمجلسين في مسجده، أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه ، والآخر يتعلم أهله الفقه ويعلمونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،: «كلا المجلسين على خير أحدهما أفضل من الآخر صاحبه ، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل ، وإنما بعثت معلمًا ثم أقبل فجلس معهم . وعن معاذ بن جبل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «العالم أمين الله في الأرض». وعنه أيضا أنه قال : «تعلموا العلم فإن تعليمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد . وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ؛ لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل أهل الجنة .....» [3].

فالرسول بهذا يلفت أنظار المسلمين إلى وجوب تعلم علوم كل الشعوب ، فالعلم يخدم الدين ، والمعرفة من الله وهي ترجع إليه ، لذلك فإن من واجب المسلمين أن يصلوا إليها وينالوها أيًا كان مصدرها البشري ، حتى لو نطق بها مخالف لهم في الدين. «فالحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها». «تقول المستشرقة الألمانية Sigrid Hunke زيغريد هونكة في كتابها Allahs Sonne Uber Dem Abendland Unser Arabisches Erb شمس العرب تسطع على الغرب)» وعلى النقيض (من هذا) تمامًا يتساءل بولس

(١) انظر الإمام أبو حامد الغزالي. إحياء علوم الدين. (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ - ١٩١٢م) ص١ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر وأيضًا ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله . (القاهرة ، المكتبة الإسلامية، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م) ص ٢٦ و٦١ وما بعدها .

(٣) ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله، ص ٢٦ و٨٨ وما بعدها .

.. الرسول مقرًّا « ألم يصف الرب المعارف الدنيوية بالغباوة ؟» ثم تقول بعده «هذان مفهومان مختلفان بل عالمان منفصلان تمامًا ، حددا بهذا طريقين متناقضين للعلم والفكر في الشرق والغرب . وبهذا اتسعت الهوّة بين الحضارة العربية الشامخة والمعرفة السطحية المعاصرة في أوروبا حيث لا قيمة لمعرفة الدنيا كلها». ثم تذكر تعريف القديس أوغسطينوس لمحور المعرفة وهو على النحو التالي : «أما الرب والروح فإني أبغي معرفتهما . فالبحث عن الحقيقة هو البحث عن الله وهذا لا يستدعي معونة من الخارج». (يعني من خارج الكتاب المقدس). وقد نفى أوغسطينوس بشدة أن يكون هناك سكان من البشر على الوجه الآخر من الأرض وذلك بحجة أن : «الكتاب المقدس لم يذكر مثل هذا الجنس في سلالة آدم» . واعتبرت الكنيسة القول بكروية الأرض كفرًا وضلالاً ، حتى أن معلم الكنيسة لاكتانتيوس Lactantius (240c - 320c) وهو المعلم الخاص لكريسبوس ابن الإمبراطور قسطنطين أيضًا ، يتساءل مستنكرًا : «هل هذا من المعقول ؟ أيعقل أن يجن الناس إلى هذا الحد ، فيدخل في عقولهم أن البلدان والأشجار تتدلى من الجانب الآخر من الأرض ، وأن أقدام الناس تعلو رءوسهم؟». كانت الأرض بالنسبة لبعض الناس في هذا الوقت عبارة عن تل تدور حوله الشمس ما بين الشروق والغروب ، وبالنسبة لآخرين مسطحًا تحيط به المحيطات وكانت لعنة الكنيسة تحل بكل من يحاول أن يفهم أسرار الظواهر الطبيعية أو يحاول تفسيرها تفسيرًا علميًّا ، حتى أن أسقف قيصرية ، واسمه أوزيبوس قد انتقد حوالي عام (٣٠٠م) مسلك علماء الطبيعة بالأسكندرية معللاً تخلف بلاده في هذا الصدد بقوله : «إن موقفنا هذا ليس جهلاً بالأشياء التي تعطونها أنتم هذه القيمة ، إنما لاحتقارنا لهذه الأعمال التي لا فائدة منها . لهذا فإننا نشغل أنفسنا بالتفكير فيما هو أجدى وأنفع». وقد استمر مثل هذا التفكير مسيطرًا على العقلية المسيحية ، فها هو توما الأكويني يصف المعرفة الدنيوية بأن موضوعاتها حقيرة . وفي عام ١٢٠٦ م حذر مجمع رؤساء الكنائس المنعقد في باريس ، رجال الدين بشدة من قراءة كتب العلوم الطبيعية ، واعتبر ذلك خطيئة لا تغتفر . وبرغم من أن الفرصة كانت متاحة للغربيين أن يترجموا تراث اليونان إلى لغتهم وقبل أن يقوم العرب بترجمته ، وبخاصة أنه في القرن السادس الميلادي كان يوجد في الغرب كثيرون ممن يجيدون اللغة اليونانية ويستطيعون من ثم الترجمة منها إلى اللغات الأخرى ، ولكنهم لم يفعلوا وذلك لأن الفكر الإغريقي ، كما تقول زيغريد هونكه: «يمثل للمسيحيين شبحًا ملعونًا فلم يقتربوا منه بل حطموا جزءًا كبيرًا من تراثه وحرموا منه البشرية . حتى أن الغرب اضطر بعد صحوته أن يبدأ من جديد

برغم أن الحضارات القديمة الهللينية على الخصوص كانت قد وصلت في سالف أيامها إلى درجة كبيرة من الرقي»[1].

ومن الجدير بالذكر أن نقول أنه لو لم يكن العرب على المستوى العقلي والعلمي الذي يؤهلهم لنقل علوم اليونان وفهمها وتطويرها لما التفتوا إليها أصلاً ، ولما شغلوا أنفسهم بدراستها ، فقد طور العرب التراث اليوناني وحولوه من مجرد علوم نظرية ، مقصورة على مجالس الفلاسفة والحكماء وتلامذتهم إلى علوم عملية تجريبية سخرت لمصلحة المجتمعات البشرية .

وليس يقل عن هذا أهمية أن نعرف أن العرب كانوا بفضل الإسلام شعبًا مبدعًا محبا للعلم والعمران ، فلقد نشر المسلمون العلم والحضارة في بلدان لم تكن فيها أصلاً علوم ولا حضارة كأسبانيا وصقلية على سبيل المثال . كانت أسبانيا عندما دخلها المسلمون بلدًا فقيرًا ومتخلفًا من جميع الوجوه فتحولت أسبانيا بفضل الإسلام والمسلمين إلى منارة ومركز حضارة وإشعاع في العالم كله .

نظرة الرحالة الفرنسيين إلى الإسلام :

إذا ما تركنا فولني جانبًا ونظرنا في أقوال بعض الرحالة الفرنسيين من أصحاب المدرسة الرومانسية وجدنا أن تشاتو براينـد chateau briand ولمرتين lamertine لوجدناهما برغم الاختلاف بينهما في وجهات النظر يتفقان مع أسلافهما في الحط من الإسلام ، فالإسلام بالنسبة للأول : «دين الوحشية ، والحكم المطلق (الدكتاتورية) والقسوة والتعصب ، وسائر الأخلاق الذميمة والتي نراها كلها مجتمعة في الشعوب الإسلامية ، والتي يبدو واضحًا من خلال نظام حياتها وتاريخها أنها أسيرة السيف ، وأن تاريخ هذه الشعوب كله مبني على البربرية والوحشية ، بل لقد هدم الإسلام الحضارة الإنسانية»[2] .

إن تشاتو يعتبر العصر الوسيط هو قلب التراث العظيم لمسيحية ، وأنه يمثل لحظة

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوق، راجعه ووي (بيروت، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، ١٤١٣- ١٩٩٣) ص٣٦٩ وما بعدها. وانظر أيضًا F L Cross (ed.) The Oxford Dictionary Of The Christian Church. (London. Oxford university press. 1961)pp. 777 f.

(2) Hichem P. 29.

صدق وحقيقة في التاريخ الإنساني كله[1].

أما لمرتين فقد كان أقرب إلى روح الإسلام ، وأقدر على الاعتراف بفضائله كما رآها ، فإنه يعتبر الإسلام ديانة عظيمة ويقرر أن في الإسلام نظامًا خلقيًا كاملاً ، وأن القرآن فيه ما هو عام وما هو خاص ، وهو يرى أن للإسلام دعوة عالمية صالحة لإسعاد البشرية. لقد تعاطف لمرتين مع الإسلام من موقع المفكر الحر ، ولكنه مع هذا لم يصل إلى حد اعتناق الإسلام ، لأنه كان لا يزال يوقن بتفوق النصرانية على الإسلام في جانب القيم الخلقية وبالأخص خلق الرحمة والتراحم وغير ذلك مما نظر إليه بعين واحدة إلى النصرانية ولكنه ليس من غرضنا في هذا البحث أن نتوسع في هذا الموضوع، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى قوله تعالى في وصف رسول الله بالرحمة : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧)، ويقول تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُم وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ .....﴾ (آل عمران ١٥٩) .

والذي يهمنا أن نلفت نظر القارئ إليه هنا هو أن الكتاب الفرنسيين قد طوروا نظرتهم بعض الشيء . وبخاصة بعد استقرار الدراسات لاستشراقية ، واطلاع المستشرقين على المخطوطات العربية والإسلامية المختلفة ، مما قرب المسافة ولو بعض الشيء بين موقفهم القديم والجامد ، وموقفهم الحديث والحركي من الإسلام .

هذه الكتابات التي سقنا أمثلة كافية منها ، كانت هي المصدر الذي أخذ منه رودينسون بلا شك كثيرا من آرائه ومعلوماته عن الإسلام ونبي الله محمد صلى الله عليه وسلم ، كما سنبينه للقارئ في هذا الكتاب ، ونحن على يقين تام أنه لن يفوت القارئ أن يلاحظ ما بين آراء مكسيم رودينسون ، وآراء سلفه من علاقات واتفاقات.

يضاف إلى هذه المصادر الفرنسية المشار إليها الكتب اليهودية سواء المقدسة أو شبه المقدسة، ككتب العهد القديم والتلمود والأساطير اليهودية والأفكار الصهيونية .

الإسلام والمسلمون في الكتب المدرسية الفرنسية :

لو تصفحنا الكتب التي تدرس في الغرب عن الإسلام أو التي تتضمن معلومات

---

(1) Ibid.

عنه، فإننا نجدها في معظمها متحيزة بصفة عامة ، فالكتب المدرسية الفرنسية على سبيل المثال تصور الحملات الصليبية في القرن الحادي عشر على أنها كانت سبب منع المسلمين للحجاج الأوربيين عن الحج إلى بيت المقدس ، وقتلهم إياهم . وزعمهم أيضًا أن هذه الحروب إنما كانت «لتخليص قبر المسيح من أيدي المسلمين بالقوة » . لقد تجاهل أصحاب هذه التفسيرات الزائفة الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية ، والتي اعترفت بها على خجل بعض الكتب الأخرى التي كانت تدرس أيضا للطلاب الفرنسيين ، إذ صورتها هذه الكتب على أنها إنما وقعت بسبب حب المغامرة ، واكتشاف أسرار الشرق ، وأهم من ذلك كله رغبة الصليبيين في استلاب ثروات الشرق نتيجة لتفشي الجوع والفقر والظلم الاجتماعي الذي سببه الإقطاعيون في البلدان الأوربية[1].

في هذه الكتب المدرسية يُلَقَّن الطلاب الفرنسيين كل شيء إيجابي عن الاستعمار ، ويُصَوَّر لهم الشعوب المستعمرة - بفتح الراء - على أنها شعوب متخلفة وسلبية ، وعلى أن الاستعمار الغربي لبلدان هذه الشعوب كان له ما يبرره . وفي نفس الوقت فقد أهمل واضعو هذه الكتب ذكر ما كان يفعله الاستعمار من إخماد حركة السكان المحليين ، ومن توطين الأجانب واستغلال الأرض والموارد والأيدي العاملة المحلية لصالح الشعوب الغربية .

وقد جاء في بعض الكتب المدرسية الفرنسية ، كتبرير للاستعمار الفرنسي ما ننقله هنا عن الكاتبة مارلين نصر : «لقد شاعت عندئذ بين الأمم حركة كبيرة نحو الاستعمار ،فالبواخر كانت في حاجة إلى قواعد في جميع القارات لتموينها ، ورجال الصناعة كانوا يبحثون عن المواد الأولية ، وكان التجار يجرون وراء العملاء ، كما أن الإرساليات كانت تسعى إلى تنصير شعوب الأرض»[2].

وفي كتاب آخر من كتب هذه الفترة يعللّ كاتبه أو كاتبوه الاستعمار الفرنسي للجزائر على أنه كان رد فعل للقرصنة التي كان يقوم بها الجزائريون ضد التجار الفرنسيين . وينبغي أن ننبه على أن لهجة الخطاب في هذه الكتب غير لائقة عندما يذكر فيها العرب والمسلمون .

---

(١) انظر مارلين نصر : صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية. مركز الدراسات الوحدة الفرنسية ١٩٩٥) ج١ ، ص٨٤، وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ص٩٣ .

إننا نجد الكتب التي تعرض لتاريخ فرنسا في حقبة الحروب الصليبية تعرض أسماء كثيرة من الأبطال الفرنسيين وبالمقابل فإنها تعرض ، إن عرضت أسماء عربية وإسلامية قليلة جدًّا . فلقد جاء ذكر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على سبيل المثال مرة واحدة في أحد هذه الكتب المدرسية ، التي تدرس في المرحلة الابتدائية ، «على أنه صاحب دين جديد هو الإسلام» هذه هي الإشارة الوحيدة في مثل هذا الكتاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلى دعوته وفي نفس الوقت فإننا لا نجد أي إشارة إلى القائد العادل ، والبطل الشجاع صلاح الدين . وأما عبد القادر الجزائري فلم يظهر اسمه ، بمجرد ظهور ، إلا مرة واحدة[1].

وفي عمل علمي له أهميته نشره مانيولا سميدي Manuela Simidei حول الاستعمار في الكتب المدرسية خلال المرحلة الاستعمارية (١٩١٩ - ١٩٦٦) انتهى المؤلف إلى أن الإسلام (دين مسخ ابتكره محمد "mohomet" الذي ادعى أنه نبي)[2].

وبالرغم من أن بعض الكتب اللاحقة قد عدلت بعض الشيء من نبرتها وتحاملها عندما اعتبرت الإسلام دين توحيد ودين عالمي ، إلا أن هذه الكتب (كتب المرحلة الثانوية) كانت متحفظة جدًا في عرض الإسلام ، بل إنها اتفقت مع كتب الجمهورية الفرنسية الثالثة على تصوير الإسلام كدين يسعى إلى تحقيق الفتوحات العسكرية . وتتفق كتب الفترتين كذلك على إبراز دور البطل الفرنسي تشارلز مارتن Charles Marten الذي وضع حدًّا لتزايد انتشار الإسلام في الغرب على حساب الإسلام.[3] ويلاحظ ميجيونيو Maigueneau أن الكتب المدرسية للجمهورية الثالثة كانت تعرض الحروب الصليبية على أنها رد فعل معاكس للفتوحات الإسلامية وهذا الرأي الأخير يتسم بالعمومية وتجاهل الواقع الحقيقي والدافع الأول والأهم للحروب الصليبية كما يتبين بوضوح من سياق البحث بشكل عام.

وقد أشار بريسويرك وبيرو في دراسة لهما إلى وجود ثلاثة قوالب كبرى تنسب دائما إلى العرب والمسلمين في نص الكتب التي تناولت الحضارة الإسلامية وهي : «التعصب» «والعدوان والتوسع» «والنهب والسلب» . وفي بعض الكتب الأخرى من هذا النوع نقرأ أن العرب ذهبوا إلى الهند كغزاة وانطلقوا هناك ينهبون ويسلبون

---

(١) نفس المصدر ص٩٣ .

(٢) نفس المصدر ص٩٣ .

(٣) نفس الموضع.

السكان في مرح .

وأن الإسلام ، وبالرغم من تأخر العالم الإسلامي في مصر ، وفي شمال إفريقيا وفي الشرق الأوسط ، قد انتشر في كل مكان مستغلا ركود الشعوب الموجودة على شواطئ هذه البلدان [1] .

وقد انتقد التقرير الذي أحرته جمعية «الإسلام والغرب» والتي كانت أكثر إنصافًا من غيرها ، الطريقة النفسية التي تبناها الكتاب المدرسي الفرنسي في رسم معالم شخصية النبي صلى الله عليه وسلم حيث جاء فيه أن محمدًا «شخصية غريبة ، وطفولة تعيسة» . كما انتقد واضعو هذا التقرير في نفس الوقت سكوت الكتب المدرسية عن تفسير السرعة المذهلة التي تم بها الفتح العربي الإسلامي، الذي تحقق بسبب ظروف مناسبة ، وهذه هي عبارة التقرير «لقد فرض العرب في كل مكان ديانتهم ولغتهم على أهل البلدان التي فتحوها ، وكانت الحريات المتروكة للمسيحيين تهدف إلى تحقيق مكاسب مالية للعرب الفاتحين[2]» .

هذه الافتراءات التي حاولت تشويه الحقائق التاريخية الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم باسم علم النفس والتحليل النفسي، كانت هي المواد التي حقنت بها عقليات التلاميذ الفرنسيين ضد الإسلام والمسلمين . إن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ليست هي بالصورة التي صورها واضعو هذه الكتب ، بل هي النموذج الأمثل للإنسانية لإنها اشتملت على كل جوانب الكمال والعظمة ، في نفسها وفي الآثار والأعمال التي حققها صاحبها . إنه لا يمكن لإنسان بمفرده في هذا الوجود أن يحدث في التاريخ ، وفي الخلق ما أحدثه محمد ولا يزال يحدثه بدعوته وسيرته إلى يوم الدين.

يشير كاتب التقرير في النقطة الأخيرة منه إلى موضوع الجزية الذي فسره تفسيرًا جد خاطئ يتنافى مع مفهومها ومقصدها في الشريعة الإسلامية ، فإنه فوق أن الجزية تعتبر حلاً خلقيًا وحضاريًا عادلاً، فإنها كانت قد فرضت كمقابل للحرية وللأمان اللذين منحهما المسلمون لهؤلاء الذين فضلوا البقاء على دينهم ، هذا فضلاً عن أنها كانت تفرض بمقادير مناسبة لدخول وقدرات أهل الذمة ، وفي نفس الوقت فقد كان يعفى من أدائها رجال الدين ، وغير القادرين من أهل الذمة بصفة عامة ، هذا مع ملاحظة أن المسلمين كان يفرض عليهم على الجانب الآخر الزكاة بمختلف أنواعها

---

(١) نفس المصدر ص١١٨ .
(٢) نفس الموضع.

ومقاديرها . لم تكن الجزية إلا تنظيمًا اجتماعيًا لمجتمع متعدد الأديان لم تعرفه أوروبا إلا منذ عهد قريب . إن الإسلام لم يكره أحدًا على الدخول فيه ، ولو أن سياسة الإسلام كانت تقوم على الإكراه لما قبل المسلمون أساسًا مبدأ الجزية ولأجبروا الجميع على الدخول فيه بالقوة ، واستولوا على أموالهم وممتلكاتهم عنوة ، ولسخروهم لصالح المجتمع الجديد ، إلا أن شيئًا من ذلك لم يحدث قط ، فقد سمح المسلمون لأهل الذمة بالحرية الدينية وأبقوا على معابدهم وكنائسهم . يضاف إلى ذلك أن العرب لم يفرضوا لغتهم على الشعوب التي دخلت في الإسلام ، بل هم الذين أقبلوا عليها وتنافسوا في تعلمها لأنها لغة القرآن الذي آمنوا به وحفظوه واتبعوا ما جاء فيه ، ولو أن اللغة العربية كانت تفرض بالقوة لما تبناها أيضًا هؤلاء الذين لم يقبلوا الدخول في الإسلام وبقوا على دينهم .كالمستعربين واليهود وكثير من الغربيين .

إن الحضارة الإسلامية، تعرض كالإسلام نفسه، في هذه الكتب المدرسية على أنها تقليد للحضارات القديمة وليست ابتكارًا ولا إبداعًا . فقد جاء في بعض هذه الكتب العبارات التالية : «إن العرب وإن لم يكونوا من كبار المبتكرين إلا أنهم عرفوا كيف يستفيدون من تراث العصور القديمة وكيف يستوعبون تقاليد البلدان المختلفة ثم ينقلونها إلينا »[1] وفي فقرة من هذه الكتب نقرأ «لقد حافظ المسلمون أولاً على العلوم اليونانية القديمة » .

وقد سبق أن ذكرنا بالمثال من قبل أن العرب قد طوروا التراث اليوناني وغربلوه وأضافوا إليه الكثير من علومهم وخبراتهم ، وحولوه من مجرد نظريات وآراء إلى تجارب وعلوم تطبيقية ، ولم يكونوا فقط مجرد نقلة أو حفظة له ومع هذا لم يمنعهم اهتمامهم بالعلوم العملية وبالبحوث من حفظ القرآن والأحاديث والتعمق في العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية المختلفة .

ولقد لاحظ واضعو هذا التقرير المهم محاولة واضعي الكتب المدرسية الفرنسية إخفاء معالم الحضارة الإسلامية ، الزمانية والمكانية ، بمعنى أنهم لم يحددوا بداية مسار تلك الحضارة مما يجعلها تبدو ساكنة ، لا تأثير لها في الزمن ، وبالتالي تصبح غير جديرة بالدراسة لأنها غير متطورة ، وغير مؤثرة . وهكذا ينحى التربويون الفرنسيون حضارتنا الإسلامية الأصيلة عن محيط التاريخ الإنساني العام[2].

---

(١) نفس المصدر ص١١٩ .

(٢) نفس الموضع.

يعلق تقرير لجنة الإسلام والغرب على هذه الفقرة بقوله :« إن مثل هذا القول يقلل من شأن الفكر العربي الذي كان فكرًا حيًّا ومبدعًا». وبالإضافة إلى هذا التعليق نؤكد ما سبق أن ذكرناه من أن فلاسفة المسلمين هم الذين استنقذوا الفلسفة اليونانية وحفظوها من الضياع ، وأزاحوا العداوة بينها وبين الدين ، وقدموها في ثوبها الجديد إلى العالم ،كالفارابي وابن سينا والفيلسوف الأندلسي ابن رشد وأبو بكر الرازي وغيرهم[1] .

انتهى معدو التقرير المشار إليه بخصوص الكتب المدرسية الفرنسية إلى النتائج التالية:

١- التركيز من جهة واضعي هذه الكتب على مظاهر الرفاهية والبذخ والجمال السحري في حدائق وقصور بغداد ، دون الاهتمام بالجوانب الحضارية الأصيلة أو النظام المالي الذي أمكن بواسطته توفير جانب كبير من هذه الموارد لصالح المجالات الحضرية في الدولة .

٢- النظرة التبسيطية للإسلام والتحقير لكل ما هو عربي أو إسلامي وهذا هو نفس المنهج الذي سارت عليه الكتب المدرسية الفرنسية لوقت طويل ، إن كتب هذه الفترة تتعمد محو العلاقات بين النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبين أهل الكتاب اليهود والنصارى .

٣- الإسلام يعني تبرير الفقر . و«ديكتاتورية الفقراء في القرآن».

٤- تصور هذه الكتب الحضارة العربية الإسلامية على أنها حضارة ميتة ، وتصور الثقافة الإسلامية كذلك على أنها ماضوية لا يوجد منها الآن إلا بعض صروح الماضي وآثاره الجميلة .

وبعد دراسة متعمقة لكتب السنتين الثانية والخامسة والتي أبدى كتابها ومصنفوها اهتمامًا خاصًا بالإسلام ، تقرر الباحثة مارلين نصر بحق أن تقديم هذه الكتب للإسلام لا يتجاوز الشكل ، فهو لا يبرز مثلا علاقة الإسلام بالديانات التوحيدية الأخرى ، ولا نظرته الفريدة إلى الله وإلى العالم .

وتعرض هذه الكتب كذلك موضوع التوسع الإسلامي والفتوحات العربية ، بمعزل عن السياق التاريخي والجيوبوليتكال العالمي الذي يفسر هذا التوسع ويضعه في إطاره

---

(١) انظر كتابنا «نصوص إسلامية في الفلسفة والأخلاق . ترجمة ودراسة» باللغة الإنجليزي (القاهرة. الفلاح. تحت الطبع).

الصحيح . أضف إلى ذلك أن أحدا من مؤلفي أو ناشري هذه الكتب لم يهتم بدراسة التطور التاريخي الفاعل للحضارة الإسلامية وعلاقتها بالحضارة الأوربية الحديثة ، ومن الملاحظ أن هذه الكتب لم تهتم بعملية الإنتاج والعمران أو الزراعة والصناعة في العالم الإسلامي المترامي الأطراف ، بل إننا نراها قد ركزت على المجتمع الحضري وتطور المدن وكأن الحضارة الإسلامية كانت فقط حضارة تبادل واستهلاك لا حضارة إنتاج وبناء [1].

وإنه لمن جمال الاعتراف بالحق أن نلفت النظر إلى أن ناشرًا فرنسيًّا مثل هاشيت يعترف بوضوح تام «بالإسهامات العلمية والثقافية للحضارة الإسلامية ، وبالنشاط الفكري للمسلمين» وبضخامة أعمال الترجمة التي قام بها المسلمون كذلك . كما أبرز هاشيت الاهتمام الكبير بالحضارة الإسلامية في أوربا في العصور الوسطى وذلك من خلال مثل هذا العنوان اللافت للنظر حقًّا ، والرائع يقينًا «أوروبا في مدرسة العرب» وتؤكد عناوين هذا الناشر المُنْصِف على أن الإسهام العربي الإسلامي في الحضارة الحديثة لم يكن مستعارًا ، أو موروثًا فقط بل كان تطويرًا وإضافة واكتشافات جديدة. وتخبرنا مارلين نصر أن النصوص والصور والوثائق في أعمال هاشيت جاءت متوازنة .

أما الناشر ناثان فهو بخلاف هاشيت قد قلل من درجة الإضاءة التي سلطها على إسهامات المسلمين إلى درجة التعتيم والتحجيم [2] وهذا الناشر نفسه يعرض موضوع التفتيت السياسي للعالم الإسلامي إلى دول مستقلة وكأنه انقسام في الدين نفسه ، فهو في مقرر السنة الثانية يعطي على سبيل المثال هذه العناوين المضللة :

١. إسلام واحد أو أكثر من إسلام .
٢. الشيعة والسنة تمديد لوحدة الإسلام .
٣. غير المسلمين .
٤. الجماعة الإسلامية وحدة وتنوع .
٥. الانقسامات الدينية (الخوارج والسنة والشيعة).
٦. مجتمع بلا مساواة . المحميون من اليهود والنصارى (يقصد أهل الذمة) المسمون في الغرب بـ the protected minorites

---

(١) انظر نفس المصدر ص٣٤ : ٣٧، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٢) نفس المصدر ص١٢٦ .

ولا يفوتنا أن نضيف إلى ما قلناه عن دار نشر هاشيت على سبيل المقارنة أنها اهتمت بتقديم الإسلام بطريقة إيجابية ففي مقرر السنة الثانية . تأتي هذه العناوين على سبيل المقارنة الإيجابية :

« إسهامات الحضارة الإسلامية».

« جسر بين العصور القديمة والعالم الحديث »

«إنجاز فائق في الترجمة»

«العربية لغة عالمية»

«إسهامات علمية ذات شأن في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والفلسفة والجغرافيا والتاريخ»

«فن أصيل» (يعني الفن الإسلامي)

الإسلام دين غير جبري

فريدريك الثاني حاكم صقلية أمير مسيحي مؤيد للإسلام

نبي مسموع الكلمة

السمات الأصلية للحضارة الإسلامية

غزاة بارعون

النهضة الأدبية

نحو إسلام حديث

ضد إذلال المرأة

ضد الجهل .

وقد سبق عرض بعض هذه العناوين ، وهي كلها تؤكد تغييرًا واضحًا في الاتجاه والأسلوب والنظرة إلى الحضارة الإسلامية ، ومحاولة إبراز قيمتها وتأثيرها على الطلاب والمثقفين الفرنسيين ، واستبعاد القوالب الجاهزة ووجهات النظر العشوائية عند الحكم على الإسلام والتي اتسمت بها الكتب الأخرى التي تدرس في مدارس فرنسا .

ولأن هاشيت قد أشار إلى القيصر فريدريك كمؤيد للإسلام فإنه من الضروري أن نعرف به على سبيل الاختصار . توج فريدريك الثاني (١١٩٤-١٢٥٠) في بالرمو وهو في الرابعة من عمره ، في نفس العام الذي توفي فيه ابن رشد في بلاط ملك مراكش (١١٩٨)، وعلى مدار حياة هذا القيصر التي دامت ستة وخمسون عامًا كان الطابع العربي غالبا على دولته ، وكان فريدريك الثاني محبًّا للغة العربية وللعلماء العرب ، وممن تتلمذ عليهم من غير العرب من العلماء أمثال ميخائيل سكوتوس

الاسكتلندي Michael Scotus الذي كانت أعظم مؤهلاته أنه درس بطليطلة بأسبانيا الإسلامية على أساتذة مسلمين . فقد ساهم مايكل في ترجمة بعض الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية ، كما ترجم كتاب الحيوان لابن سينا ، وشروح ابن رشد لفلسفة أرسطو .

وكان لشروح ابن رشد تأثير بالغ على أساتذة وطلاب جامعة باريس ، كما كانت العلوم العربية تدرس في جامعات أوروبا كلها بفضل ترجمات سكوتوس ومؤلفات ليوناردو البيزي صديقه والتي قامت على أساس المعرفة العربية الإسلامية . كان فريدريك شغوفًا بالعلوم العربية ، وكان كثيرًا ما يستقبل وفود العلماء العرب في بلاطه حتى أنه عندما استقبل وفدًا من علماء دمشق ، والذين أهدوا إليه جهازًا قيمًا لرصد الكواكب وحركاتها ، أبقاهم في ضيافته لعدة شهور بغرض إكرامهم وفي نفس الوقت لكي يدربوا بعض رجاله على استعمال هذا الجهاز ، وقبل عودة الوفد إلى دمشق احتفل معهم فريدريك الثاني بعيد رأس السنة الهجرية ، وأقام لهم بهذه المناسبة وليمة ضخمة لم يعرف الغرب لها مثيلاً ، وكان فريدريك الثاني يرسل بالأسئلة العلمية والفلسفية إلى علماء المسلمين في مصر وسوريا والعراق واليمن ومراكش والموصل يصب الإجابة عليها ، وكان هذا الأسلوب غير معروف في أوروبا . وكان فريدريك الثاني يقوم بمراجعة الترجمات بنفسه حتى في أوقات الحروب [1].

وفي هذه القرينة ينبغي ألا نهمل الإشارة إلى الملك النورماندي روجر الثاني فقد كان هو الآخر يحب العرب ويقدر لهم تفوقهم العلمي ويفيد من علومهم ومعارفهم ومناهجهم ، وقد طلب هذا الملك من العلامة الإدريسي - أعظم جغرافي عربي - والذي تلقى دراسته في جامعات قرطبة الإسلامية أن يؤلف له موسوعة جغرافية شاملة عن مملكته والبلاد المجاورة لها ، مما استدعى الإدريسي أن يقيم في بالرمو خمسة عشر عامًا حتى أتم كتابه الرائع والرائد في وصف الأرض ، وهو كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » .

ويحدثنا ابن الأثير أن الملك روجر الثاني كان يكرم المسلمين ويقربهم ويمنع عنهم الإفرنج فأحبوه لدرجة أنه عندما مات ابنه الأكبر والأنبه أظهر العرب حزنهم الشديد عليه ورثاه شعراؤهم ولبست السيدات العربيات الحداد عليه لدرجة أنهن خرجن فالتففن حول القصر ومعهن خادماتهن ينشدن الرثاء في الفقيد .[2]

---

(١) هونكه . شمس العرب تسطع على الغرب. ص٤٤٨ - ٤٥٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (بيروت - دار صادر ١٩٦٦) ج ١٠ ص١٩٨. وهونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص٤١٥-٤١٦.

يضاف إلى هذه الاعترافات بقيمة الحضارة الإسلامية ودورها في خدمة البشرية على تنوعها واتساعها ما قدمه بورداس ، وإن كان أقل إيجابية مما قدمه هاشيت فإنه على الأقل لم يتحامل على الإسلام ، إذ أنه لم يرد في مجموعة كتبه المدرسية أي عنوان معاد للإسلام أو المسلمين ، وللتدليل على ذلك نستعرض هذه العناوين من كتبه : «فائدة القرآن» «توسع سريع ودائم» ، «علوم على قدر كبير من التطور» ، «صناعات دقيقة» ، «يقظة الإسلام» هذه العناوين وغيرها كثير لا يتسع المقام لاستعراضها ، وكلها على أي حال تعتبر بمثابة المصابيح المضيئة في سماء العلاقات الغربية الإسلامية ، وهي من المبشرات بعلاقات أقوى وثقة أعمق بين الشعوب الإسلامية وفرنسا والغرب بصفة عامة ، وعلينا نحن أن ننميها ونطورها ، وإن كان عدد هذه المصابيح وقوتها ودعومتها للأسف لا يقوى بعد على تبديد ظلمات التعصب والانحياز ضد الإسلام والمسلمين .

وإذا كنا قد عرضنا بعض الأمثلة من عناوين الكتب المدرسية في فرنسا ، والدالة على التسامح والإنصاف نعرض بعد ذلك بعض العناوين التي تتسم بالتعصب والعداء ، والأمثلة نأخذها من كتابين صدرين عن ناشان للسنتين الخامسة والثانية والعناوين هي :

الأقليات اليهودية والمسيحية وضع دوني واضطهاد

نحو انقسام جديد للمجتمع

عالم مجزأ وما زال قويًا

تعلق مارلين نصر بوعي على مثل هذه الدعاوى بقولها : «رؤية باردة تصبح أحيانا عدائية ، تبرز عناوينها تعارضًا مزدوجًا بين الغرب والعالم الإسلامي من ناحية ، وبين الأديان التوحيدية الثلاثة من ناحية أخرى»[1]. وتضيف نفس الكاتبة قائلة : «بل وتعمل بعض العناوين الحمقاء على التشكيك في صدق الممارسة الدينية ، وفي حقيقة الوحي الإسلامي ، ولننقل هذه العناوين من ناشان لندلل على أن دعوى الصراع بين الإسلام والغرب لها تاريخ سابق على كتاب صمويل هانجتون «*صراع الحضارات*» يقول ناشان « الصيام ممارسة دينية أم تأكيد ثقافي للذات» «محمد يقابل قسيسًا مسيحيًا شمال بلاد العرب» «محمد يضع الحجر الأسود في عباءته» «نظرة الغرب إلى العالم الإسلامي» «سوء معرفة الإسلام والخوف منه حتى القرن الخامس عشر» «تقهقر

(١) صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية، ص١٢٩ .

الإسلام في القرن التاسع عشر» «الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية : ثلاث ديانات توحيدية لا تستطيع الوصول إلى تفاهم»[1].

وكما لاحظت مارلين نصر أن ٧٠ ٪ من عناوين هذا الناشر لها مدلولات حيادية ولكنه من اللافت للنظر خلو عناوينه من أي نبرة إيجابية تتسم بالود والثقة تجاه الإسلام والمسلمين. ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى نقطة مهمة وهي أن ناثان لا يعتمد في معلوماته عن الإسلام والمسلمين على القرآن والمصادر العربية الأصيلة ، بل على الدراسات الاستشراقية ، والوثائق الغربية بصفة عامة .

ومن ناحية أخرى ينكر ناثان على الإسلام خلق التسامح، ويصف المسلمين بالتعصب لدينهم ولغتهم وتقويمهم . ويزعم بأنهم عمدوا إلى أسلمة المسيحيين في البلدان المجاورة بالقوة . ويصرح بأن «القرآن يرفض أي دين آخر غير الإسلام» ويسعى إلى : «فرض الإسلام على غير المؤمنين بالقوة»[2].

أما الناشر هاشيت والذي سبقت الإشارة إلى تسامحه بالمقارنة إلى معاصريه : فيقدم من وجهة نظر علمانية بالطبع حلاً لمشكلة التعصب والتسامح ، في الإسلام ، إذ قد لاحظ بحق الاختلاف في موقف الإسلام من المشركين ، وأهل الكتاب ، فقد أعطيت الشعوب المؤمنة بالمسيحية و اليهودية والزرادشتية بل والهندوسية (قياسًا) حرية البقاء على دينهم ، أما الكافرون فقد أجبرهم المسلمون على الدخول في الإسلام .

إلا أن تحليل هؤلاء المؤلفين الفرنسيين لهذه الظاهرة -أي ظاهرة انتشار الإسلام- لم يصل إلى الصواب في هذه المسألة ، إذ أنهم يقولون ، انطلاقًا من موقفهم كعلمانيين ، أن إجبار الكفار على الإيمان بالإسلام كان بغرض إقامة السلطة الدينية. يقول أحدهم «قام العرب بتخيير الكافرين بين الدخول في الإسلام أو الموت ضربًا بالسيف ، ولكنهم احترموا اليهود والمسيحيين والزرادشتيين وكذلك الهندوس . فهم لم يكن همهم تحويل الناس عن دينهم ولكن فرض السلطة الإسلامية»[3].

وقد استنكرت جمعية «الإسلام والغرب» في تقريرها ما اعتبرته توجهات ضارة مدسوسة في كتب التاريخ المدرسية في فرنسا ، هذه التوجهات تتجه نحو الدعوة إلى تمحور أوروبي حول الذات Europeocetrisme، كما ورد في هذا التقرير ما نسوقه

---

(١) نفس المصدر ص١٣ .
(٢) نفس المصدر ص١٣٦.
(٣) نفس المصدر ٢٥ ، ١٣٧ ، ٢٩٤ .

كشـــاهد على التحـامل على العقليـة العربيـــة الإســـلامية «إن العرب وإن لم يكونوا مبتكرين ذوي شـأن قد عرفوا كيف يحصلون على تركـة العالم القديم ، ويسـتوعبون تقاليد البلاد التي كانوا يحتلونها ثم ينقلونها ويتقلدونها». وجاء فيه كذلك «لقد كان المسـلمون قبل كل شـيء هم الذين حـافظوا على العلـم الإغريقي القديم» . وقبل أن نعرض تعليق الجمعية على مثل هذا الكلام ينبغي أن نوضح أولاً : أن الإسلام لا يسعى إلى فـرض سلطة دينيـة وإنما إلى تعريف الناس بـالحق وفتح الطريق بينهم وبينه ، وينبغي أن يكـون واضحًـا أيضًـا أن السـلطة الإســلامية لا تفـرض إلا حيث يوجـد المجتمع الإسلامي الذي ربمـا يكون من بين عناصره رعايـا غير مسـلمين ممن قد أقرهم الإسلام على أديانهم . أما عن تعليـق الجمعية الذي أشـرنا إليـه ، فهو كما ورد بالتقرير «إن مثل هذه الأقوال تقلل من شأن الفكر العربي الذي كان فكرًا حيًا مجددًا ، وتوحي بأن الإسلام لم يكن إلا مقلدًا دون خيال خلاق»[1].

وعلى العكس من ذلك فإن العقلية العربية الإسـلامية عقلية مبدعة في جميع المجالات العلمية بـل لقد كان من فلاسـفة وعلماء المسـلمين مَنْ صفـى الفلسفة اليونانيـة ونخلها وقدمها في الزي العربي وباللسـان العربي ، وقرب بينها وبين الإسـلام وأزاح التعارض الظـاهري بينهما . وكان مـن العرب علماء في الفقـه والتاريخ والأدب والفلك والطب والهندسـة والجبر والجغرافيا والجيولوجيـا والزراعة وكـان منهم الرحالـة ، وغير ذلك . وكـان علماء العرب هـم المتفردون بكراسـي العلوم المختلفـة في العالم ، وعنهم انتقلت العلوم العربية والإسـلامية إلى أوروبـا ، وإن أسماء الفارابي وابـن سينا وابـن رشد وابن الهيثم وابـن خلدون والغزالي وابن ماجة والإدريسـي و المقدسي وابن بطوطة واليعقوبي وابن حزم والغزالي وغيرهم من مشـاهير علماء المسلمين ليست بغريبة على الأوروبيين، لقد عرفتهم أوروبا بأسمائهم وبعلومهم ، وأفادت منهم وتتلمذت لهم لعدة قرون .

ونواصل كلامنـا عن الكتـب المدرسـية الفرنسـية ، فنقـول إن الإسـلام في مثل هذه الكتب ، التي تتشـكل بمقتضاهـا عقليـة الطفل الفرنســي الذي هـو عـالم أو سياسـي المسـتقبل ، يصور دائمًا بطريقة سـلبية ؛ فهو بحسـب ما جاء في هذه الكتب دين يحض على التسـليم الأعمى ، والخضـوع القهري للإلـه . ويسـتعين واضعو هذه الكتب على تأكيد هذا المعنى بتفسـير كلمة «عبد» العربيـة بـ slave الإنجليزيـة و sclave الفرنسية

---

(١) نفس المصدر ص١٤٥ .

التي تفيد معنى الرق ، أما كلمة «عبد» في الاستعمال القرآني ، والتي أطلقت على الأنبياء والملائكة أيضًا كما أطلقت على عموم البشر فإنها تعني شيئًا آخر غير ما تعنيه كلمة عبد بمعنى رقيق ، ولذلك فإنها جمعت في القرآن والسنة على عباد وليس على عبيد أو رقيق ، وكلمة عباد من العبادة والتعبيد : أي تذليل طبيعة الإنسان ، كما يذلل الطريق ، ليكون صالحًا للسير عليه ، كذلك يذلل الإنسان ليكون قابلاً للهداية الربانية والمنهج الإلهي ، فكلمة عبد في الاستعمال الإسلامي ، القرآني ، والنبوي لها مدلول تربوي، ونفسي واجتماعي لا يوجد في كلمة عبد التي تجمع على عبيد .

وننتقل إلى نقطة أخرى وردت في هذه الكتب ، إنها تصف الفتوحات الإسلامية بأنها كانت غزوًا قصد به الجباية لا الهداية ، وأن المسلمين كما أشار مكسيم رودينسون نفسه قد صوروا على أنهم همج نهابون ، وأنهم يعتبرون آفة بالنسبة لأعدائهم (١) .

وقد أساءت هذه الكتب المدرسية كذلك في تفسير ظاهرة انتشار الإسلام إذ تعزى بعض هذه الكتب بالإضافة إلى ما ذكرناه من قبل ، أن سببه هو ضعف الدول التي انتشر فيها الإسلام ،وتحلل أنظمتها، وإلى شيوع البدع بين نصارى الكنائس الشرقية . ويزعمون كذلك أن الفتوحات الإسلامية كانت بمثابة الهجرة إلى وادي الهلال الخصيب طلبًا للنعيم أو الغنائم .

على أن من هذه الكتب ما تذكر أن الإسلام قد انتشر بسرعة غير معتادة لأنه كان يحترم الخصوصيات الدينية والثقافية للشعوب غير الإسلامية التي فتحها المسلمون (٢).

والملاحظ هنا أن كُتّابَ هذه المقررات الدراسية قد لجأوا إلى تفسير ظاهرة انتشار الإسلام إلى عوامل سلبية خارجية وغير واقعية ، و لم يرجعها أحد منهم إلى ما في الإسلام نفسه من قوة وحيوية وواقعية .

وفي سبيل تعميق ذلك جاء في كتاب السنة الثانية (ص ٣٠٩) أن المجتمع الإسلامي لا مساواة فيه بين اليهود والنصارى والمسلمين ، وأن الأولين يعيشون في نظام أدنى من الأخيرين وأن الطوائف اليهودية والمسيحية (الأقباط في مصر) و(الموارنة في لبنان وفي أرمينيا) استطاعوا أن يحافظوا على أنفسهم بالرغم من الاضطهادات الدورية التي كان يوقعها بهم المسلمون (بورداس للسنة الثانية ٣٢٤)

(١) انظر رودينسون في ناثان ت ٢٣ للسنة الثانية ص٣٧٦، وانظر نفس المصدر السابق ص١٤٧.
(٢) نفس المصدر ص٤٩ ، ١٤٨ .

وإلى هؤلاء الكتاب الفرنسيين ترجع مثل هذه التسميات «إسلامات»، «إسلام عربي»، «وإسلام تركي»[1] .

بقيت هناك ملحوظة مهمة علقتها مارلين نصر وهي أن العملية السيميائية (الصور والخرائط) لم تكن معبرة أبدًا عن روح الإسلام أو حضارته ، كما أن نسبتها إلى الموضوعات التي في هذه الكتب عن الإسلام كانت ضئيلة للغاية وذلك بالمقارنة إلى النصرانية واليهودية أو الحضارة الغربية والاستعمار الغربي مثلاً .

وقد بينا فيما سبق خطأ مثل هذه الأحكام الجزافية على الإسلام مما يغنينا عن تكرارها هنا .

وقبل أن نختم هذا القسم من الكتاب ينبغي أن نلفت النظر إلى أنه توجد كتابات أخرى كثيرة في الهجوم المباشر على الإسلام ، وكتب أخرى تدرسه بدرجات متفاوتة من الموضوعية أو التحيز ، منها كتابات رينان وهانوتو . وقد ناقشنا وفندنا مزاعم هذين الكاتبين في بحثنا «مشكلة الجمود وقضية الاجتهاد» التي سبقت الإشارة إليه في هذا الكتاب .

---

(١) نفس المصدر ص١٥٣ .